جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

الحرب واثرها النفسية والاجتماعية والتربوية على الاطفال والناشئة في لبنان

الدكتور مصطفى حجازي

الرياض

1409 هـ - 1989 م

الحرب وآثارها النفسية والاجتماعية والتربوية على الأطفال والناشئة في لبنان

الدكتور مصطفى حجازي(*)

المقدمـــــة:

لاتوجد حروب بدون خسائر وآثار سلبية، والأطفال هم في معظم الحالات أكبر الخاسرين من الحروب وأكثر من يتلقى آثارها السلبية، أياً كان الوطن أو الجماعة التي ينتمون اليها، وهناك حتى اليوم اتجاه لتجاهل النتائج الحقيقية للحرب على الأطفال، على أن هذه الآثار تتنوع تبعاً لطبيعة الحرب مدتها، مجالاتها، وأطرافها.

فالحرب ضد عدو خارجي قد تكون لها آثار ايجابية على الأصعدة النفسية والاجتماعية رغم ما تحمله من خسائر مادية وبشرية، حرب مقاومة الاحتلال الاسرائيلي للبنان مثلا، كسائر حروب التحرر من المحتل والمعتدي تعزز الانتماء وتعلي من شأن الهوية الوطنية والتضامن الاجتماعي، ويجد الأطفال أمامهم نماذج عالية من البطولات تعزز شخصيتهم وتعوضهم عن الصدمات النفسية الناتجة عن الاعتداءات الحربية في حالة من الاعتزاز الوطني.

(*) كلية الآداب. جامعة بيروت. بيروت. لبنان.

ولكن ليس هذا شأن الحرب التي تتخذ طابع الصراعات الأهلية الدامية والمتنقلة من موقع الى آخر ومن صعيد الى آخر، فهنا تغيب كلياً الأوجه الايجابية من المعارك لتبقى الآثار السلبية وحدها، وهي تبلغ في هذا الحالة ـ كما سنرى ـ درجات من الخطورة والشمول والعمق تشمل كل مقومات الحياة والوجود، ولا تقتصر على الجوانب الأمنية وحدها، كما هو حال الحروب ضد عدو خارجي.

ولذلك لابد حين دراسة الآثار الاجتماعية والنفسية والتربوية للحرب اللبنانية على الأطفال من التمهيد في قسم أول بتحديد خصائص هذه الحرب ومعالمها، وذلك على صعيدين أساسيين: أمني واجتماعي حياتي ذلك أن الأضرار اللاحقة بمستقبل الناشئة ـ كما سنرى ـ لا تنتج عن صدمات المعارك وحدها، بل تنبع أساساً من نوع الاطار الاجتماعي الحياتي الذي يعيش فيه هؤلاء الناشئة وأسرهم في ظل الحرب الأهلية.

ذلك أن صدمات الحرب أمنياً قد تعوض أو تستوعب على المدى الطويل بدرجات متفاوتة من النجاح، أما الذي يشك في امكانية تعويضه فهو الخلل الذي يصيب بنية الشخصية ونموها ونمط العلاقات والنظرة الى الذات والوجود، والذي ينتج عن اختلال الأطر الاجتماعية والحياتية في ظل الحروب الأهلية

تستند معطيات هذه الدراسة أساساً على تجربتنا العيادية في العمل مع الأطفال والناشئة والأسر ضمن مؤسسات الرعاية وخارجها

وفي الاطار المدرسي والمهني، حيث تشغل مهاماً ارشادية علاجية تربوية، كما تستند الى الدراسات النفسية العيادية غير المنشورة التي أجراها طلاب الماجستير في قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية تحت اشرافنا خلال ٣ سنوات على الأسر المهجّرة والأسر التي تعيش في مناطق الاشتباكات الدائمة، وتستند أخيراً على مراجعة العديد من الدراسات والمقالات وأوراق العمل والمحاضرات التي أعدت عن آثار الحرب اللبنانية على الطفولة والناشئة والأسرة.

١ ـ الخصائص الأمنية للحرب اللبنانية:

لم يعرف تاريخ العنف لوناً أو أسلوباً أو شكلا من أشكاله الا ووجد له في الحرب اللبنانية تطبيقاً، حتى أن الانسان اللبناني قد أضحى خلال ١١ سنة من الحرب محاصراً بالعنف على كل صعيد ومعرضاً له من كل ناحية.

فهناك العمليات الحربية النظامية وشبه النظامية بالأسلحة الثقيلة، هذه العمليات التي تنتقل من منطقة الى أخرى وتتفاوت في ضراوتها وتدميرها أدت الى خلق خطوط تماس ومناطق عزل وفرز سكاني، كما أدت الى تدمير مناطق بأكملها في العديد من أرجاء لبنان والى تهجير مئات الآلاف من السكان تهجيراً نهائياً في معظمه، ومؤقتاً في قسم ضئيل منه

اختلطت هذه المعارك مع الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة من اجتياحات لبعض المناطق وتدمير لها واحتلال لأخرى، ومن غارات

جوية، أو عمليات كوماندوس تزرع الموت والدمار وصولا الى الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢م وما حمله معه من دمار وخراب وخسائر بشرية واصابات ومصائب واعتقالات ومداهمات ونسف، مما يشكل حالة صدمات حقيقية مما سيأتي الحديث عنه في القسم النفسي.

يضاف الى هذه العمليات النظامية وشبه النظامية تفجر وتنقل المعارك داخل الجبهة الواحدة ما بين المليشيات والتنظيمات المسلحة، هذه المعارك المتكررة والتي قد تحدث بشكل دوري أو مفاجيء تتفاوت في ضراوتها، وفيما تسببه من خسائر مادية وبشرية، الا أن الغالب عليها هو انزال الخسائر بالمواطنين العاديين غير المسلحين، فهؤلاء وأرزاقهم وممتلكاتهم وأرواحهم يشكلون وقودها الحقيقي، حتى أن هناك من قال: «ان أفضل وسيلة لحماية ذاتك من أخطار هذه المعارك هو أن تكون مسلحاً» وما يصدم في هذه المعارك هو عبثيتها بالنسبة للمواطنين، فهي خسارة محضة لا تحسم وضعية ولا تؤدي الى نتيجة، فبعد فترة لا تطول تعود الأمور وكأن شيئاً لم يكن، كما أنها تشكل من حيث آثارها النفسية السلبية كابوساً أمنياً للمواطن الذي لا يدري متى سيفاجأ باشتباك أو معركة قد يذهب هو أو أسرته أو أبناؤه ضحية له

ويولد ذلك حالة من القلق الدائم وانعدام الشعور بالأمن في المجال الحيوي المعتاد، وتتراكم الصدمات هذه لترسخ مشاعر التهديد للوجود الذي يظل كامناً في فترات الهدوء ولكن يعود فيتفجر

فجأة عند اندلاع الاشتباكات؛ وهكذا يعيش المواطن في وضعية الخطر الذي لا يدري من أين سيأتيه ومتى يصيبه أو يحاصره، والأخطر من هذه الاشتباكات هو حالات الحصار التي قد يتعرض لها المواطن: حصار الأطفال في المدارس، أو الأب في الخارج، والعيش في قلق اللحظات العصيبة حين تنفصل الأسرة عن بعضها بهذا الشكل.

وتتقطع هذه الاشتباكات مع معارك خطوط التماس ومع القصف العشوائي الذي تنهمر قذائفه على كل مكان لا تستثنى مدارس ولا مستشفيات ولا منازل ولا مؤسسات ناهيك عن الأماكن العامة، وهكذا يصبح البقاء في المنزل خطراً والذهاب الى العمل أو المدرسة خطراً على حد سواء، ويماثل القصف العشوائي في خطورته - أو يزيد من حيث صعوبة اتخاذ الاحتياطات الأمنية اللازمة - عمليات التفجير: تفجير السيارات المفخخة، تفجير المكاتب والمحال، وتفجير المباني، فالخسائر الفادحة التي تنزلها عمليات التفجير هذه بالمواطنين مادياً وبشرياً وعنصر المفاجأة فيها تجعل الانسان يعيش في حالة من الاعتباط التام، يفقد زمام الموقف والقدرة على التصرف، ويلقي به في وضعية الضحية الكاملة التي لا حصانة لها ولا حماية، وهو ما يفجر - كما سنرى - النزعات الخوافية والاضطهادية، موقعاً الكثيرين في حالة من الوساوس المرضية والشلل الحياتي شبه التام نتيجة ما يسعون الى اتخاذه من احتياطات يعرفون أنها قد لا تقيهم خطر الاصابة

ويضاف الى ذلك كله عمليات المجازر الجماعية والخطف والقتل على الهوية (لا لذنب اقترفه المرء الا لأنه من طائفة معينة أو منطقة جغرافية محدودة ذات تجانس سكاني أو طائفي يشكل الخروج منها بالنسبة للغالبية العظمى من الناس خطراً حقيقياً) كما يضاف اليه التوقيف على الحواجز الدائمة أو الطيارة (والتي لا يمكن الاحتياط لها في غالبية الأحيان).

بالطبع لا تتساوى هذه الأخطار الأمنية في شموليتها لكل الناس ولا لكل المناطق، فهناك مناطق خطر دائم وهناك أخرى أقل خطراً، وهناك ثالثة تتضمن خطراً بالصدفة، الا أن الخطر يظل ممكناً في أي وقت وأي مكان.

كما أن أكثر الناس تعرضاً للأخطار هم بالطبع الأقل قدرة وامكانية على الصعد المادية، فهؤلاء يفتقرون الى وسائل الاحتماء أو التحرك الى مناطق أكثر أمناً أو السفر كما هو شأن الموسرين.

ولا تتمثل الآثار السلبية لهذه الأخطار الأمنية في الاصابة المباشرة (موت أو عاهة) أو فقدان الممتلكات أو المسكن أو مورد الرزق فقط، بل تتغلغل آثارها في العمق لتصيب مجمل العلاقات الأسرية مفجرة فيها الصراعات وردود الفعل الانفعالية المتطرفة، كما هو الحال في وضعية الاقامة الطويلة في الملاجىء وما تتضمنه من تحديد للمجال الحيوي وتقييد لحرية الحركة وفرض لنماذج من السلوك الطفلي، وحتى خارج الملاجىء فان النسيج الأسري يضار

بشكل خفي وخطير نتيجة للكابوس الأمني وللعيش في وضعية القلق الدائم، وهو ما سنتوقف عنده تفصيلا في بحث الآثار النفسية.

٢ ـ الخصائص الوجودية الحياتية:

لا تتوقف آثار الحرب على جوانبها الأمنية التي تظل محدودة رغم ضراوتها بل ان الجوانب الحياتية ونمط الوجود الذي ينشأ عن الحرب قد تكون أكبر ضرراً وأعمق أثراً بما لا يقاس على التوازن النفسي والتكيف الاجتماعي المستقبلي للأطفال ولذلك لابد لنا من وقفة متأنية ازاء نمط الوجود الذي ولدته الحرب لاستعراض انعكاساته في الأقسام التالية من البحث ومن الطريف أن نشير هنا الى أن معظم الدراسات التي أجريت على آثار الحرب في لبنان كانت تركز على الجوانب الأمنية في المقام الأول، ولا تعطي للجوانب الحياتية والوجودية الوزن المستحق رغم كونها الأكبر أثراً حيث تؤدي الى نمط مختلف من الوجود، وبالتالي الى نمط مختلف من التوجه والنشأة.

أول خصائص الاطار الحياتي الذي ولدته الحرب وقد يكون من أخطرها على الاطلاق،نظراً لانعكاساته على العديد من العوامل الأخرى، هو انهيار السلطة الرسمية في مصداقيتها ومرجعيتها وأدواتها ورموزها وقوانينها ومؤسساتها، فالمواطن أصبح يعيش بدون مرجع يردع ويضبط رغباته في التسلط أو خرق القانون وبالتالي فلقد أصبح في الوقت عينه بدون حماية، وبدون مرجع يضبط سلوكه وسلوك الآخرين تجاهه، مرجع يؤمن له الحد الأدنى ولو الرمزي من سلطة

توجيه الممارسات والسلوك، المواطن بلا قانون هو مواطن بلا حصانة ولا حقوق، وهو مواطن معرض لكل شيء في كل وقت، وهذه وضعية مولدة للقلق ومشاعر الضياع وانعدام الطمأنينة الجذري، وقد يعرضه ذلك للانفلات بدون حساب ولكنه يلقيه في وضعية الخطر الدائم.

وسنرى أن الأمر بالنسبة للأطفال أخطر من ذلك، اذ يمس قضية تمثل القانون ورموز القانون باعتبارها العملية الأساس في نمو الشخصية المتوازنة نفسياً والمتكيفة اجتماعياً

ومع انهيار السلطة فعلياً ورمزياً تصاب السلطة المباشرة في الأسرة في نفس الوقت (سلطة الأب أو من يمثله، وسلطة الأسرة عموماً) باعتبارها المرجع الأساس للطفل، المنظم لنزواته ومصدر الحماية له، والنموذج الذي يحتذيه لبناء ذاته، ومع وهن سلطة الأسرة وهنت كذلك سلطة بقية المؤسسات الاجتماعية التي تؤطر السلوك وتقننه وتوجه الطاقات وتضع النماذج والمعايير لنمو الشخصية

وهكذا يجد المواطن نفسه كبيراً كان أم صغيراً وحيداً في مواجهة عالم غير محكوم ولا مضبوط ولكن المسألة لا تظل على حالها من الفراغ اذ نشأت سلطات بديلة محلية، تتفاوت في حجمها وقوتها ونفوذها وطبيعة علاقاتها بالناس محل السلطة الرسمية وتقاسمت أشلاءها، هذه السلطات البديلة تؤدي في المقام الأول الى تفتيت الولاء والانتماء اذا كانت قادرة وساهرة على رعاية المواطن، ولذلك

أصبح مرجع الانسان، والطفل في المقام الأول، محلياً ضيقاً يعزله عن الانتماء الى وطن كامل المقومات، وسنرى كيف أدى ذلك الى انهيار الهوية الوطنية بما هي أحد المراجع الرئيسية في بناء الهوية الذاتية.

على أن السلطات البديلة لم تكن دوماً على درجة كافية من الثبات والاستقرار والقدرة على ملء الفراغ فإما أنها تصبح شكلية محضة تقتصر على جوانب القوة ورموز القوة، وإما أنها سلطة متغيرة تتبدل بتبدل الأحوال وسير الأزمة عسكرياً وسياسياً وهنا تنشأ حالات الضياع: الى من يرجع المواطن ومع أي سلطة يتعامل؟ فهو قد يجد قنوات اتصال مع سلطة بديلة معينة لا تلبث الأحداث أن تطيح بها كي يأتي بديل لها وهكذا.

أما على مستوى الأطفال فالكثير منهم يقعون في الحيرة التامة والضياع الكلي حين يجدون أن من كان صديقاً وحليفاً وحامياً قد انقلب الى عدو دون أن يدروا، لماذا؟ ذلك يفتح المجال أمام سيطرة الاعتباط، كمبدأ موجه للحياة، وليس أخطر من هذا المبدأ على نمو الشخصية المعافاة نفسياً والمتكيفة اجتماعياً، الا أن هذا الاعتباط الظاهري سيعود وينتظم في قانون جديد هو قانون القوة المحض. التجربة الحياتية هنا، والمجال الحيوي كله ستحكمه انطلاقاً من ذلك علاقات القوة والعجز، أو علاقات المعتدي والضحية، فانت اما أن تكون قوياً أو محمياً من قوة ذات سلطان فتبيح لنفسك كل شيء وإما أن تكون ضعيفاً وغير محمي فتستباح في

كل شيء، إما أن تسيطر واما أن تنكفىء، تلك هي صورة الواقع الحياتي الذي نتج عن الحرب والذي يتعامل معه الأطفال كما سنرى.

ومن أبرز الآثار الناتجة عن هذا الواقع، ايثار الناس للسلامة وانكفاء غالبيتهم، وفقدان الأطفال لمجال حيوي طبيعي يتحركون فيه ويترعرعون، الشارع مصدر خطر، والحديقة العامة قد أخذت منهم والأماكن العامة غير مأمونة وهنا يتضافر الأمن العسكري مع ما اصطلح على تسميته الفلتان في تصعيد الخطر، وتكون النتيجة أن صورة الحياة وصورة العالم الخارجي عند الأطفال تتصفان بالخطر بدل اتصافهما بالجاذبية وتقديم فرص الانطلاق والتعامل النشط مع الحياة.

ومن أبرز الظواهر التي أنتجتها الحرب على صعيد الحياة العامة الأذى الكبير الذي لحق بالمجال الحيوي الأصلي لشطر هام من المواطنين الذين اقتلعوا وهجروا من مناطقهم، حمل التهجير تحولات كبرى في حياة الآلاف من الناس هي أقرب ما تكون الى الزلزال الذي افقدها تماسكها وتوازنها وافقد الناس انتماءاتهم وعلاقاتهم وغير نمط حياتهم ونظرتهم الى أنفسهم والى وجودهم ومصيرهم فهو - كما سنرى - يثير أشد مشاعر القلق ويحرك عقدة النقص والعجز وما يرافقها من مشاعر دونية واثم، وما قد تغطي به من عدوانية متفجرة أو افراط في الانكفاء، أو هروب في التحلل السلوكي والخلقي، انه يخلق حالة تشكل خطراً جدياً على التوازن النفسي وعلى التكيف الاجتماعي وعلى التوجه نحو المستقبل: الحياة في سساكن متداعية أو

مهجورة بسبب ما لحق بها من أضرار أو بسبب ما يحيط بها من أخطار أمنية

من ضمن الحالات الأقل حدة في آثارها رغم خطورة هذه الآثار الاقتلاع الدائم والتغيير القسري والدوري للسكن وللمجال الحيوي بحثاً عن الأمن.

ومن الظواهر المميزة لحياة الحرب والتي تمارس أشد الضغوط النفسية على المواطن العيش في حالة دائمة من الغموض وعدم التأكد كيف ستتطور الأمور؟ هل ستنفرج أم ستنفجر؟ ذلك هو السؤال الدائم الذي اتخذ طابعاً هجاسياً قهرياً والذي يطرحه الناس على أنفسهم ويبادرون غيرهم به في كل مناسبة ولقاء، من خصائص الحرب في لبنان أنها انتجت هذه الوضعية المعلقة ولمدة طويلة جداً من الزمن (ما يزيد عن عشر سنوات) فهي تمر بمراحل من التفجر والانفراج متعاقبة وتجر معها حالات مفرطة من الخوف والحذر ومن التفاؤل والاقدام، ولكن لا الخوف كان مجدياً ولا التفاؤل كان فعالا واذا الناس في متاهة حقيقية لا يدرون ماذا يفعلون وكيف يخططون ليومهم وغدهم وحياة أولادهم ومستقبلهم، ان تساوي احتمالات الانفجار والانفراج على الدوام ولد وضعية تتصف بكل خصائص العصاب التجريبي، (صراع توجهين متناقضين ومتساويين في القوة لا يمكن حسمه) اضافة الى ما لهذه الوضعية من آثار خطيرة على توازن الآباء والأبناء على حد سواء على الصعيد النفسي، فانها تؤدي الى حالة ليست أقل خطراً على صعيد التكيف الحياتي والمستقبلي، اذ

حين تضطرب الديمومة وتختل صورة المستقبل أو يصبح متعذراً استشرافها ضمن حدود دنيا س الثبات يختل السلوك لا محالة ويقع الانسان في حالة ردود الفعل الآنية التي تشكل أبرز مقومات التصرفات غير المتكيفة اذا لم تصل الى حد التصرفات الكارثية: عدمية، يأس، استهتار، هروب في الملذات، هروب الى الأمام، وهذا كله يفتح صفحة سوء التكيف السلوكي عند الأبناء.

كل ما سبق من ملامح نمط الوجود المميز للحرب اللبنانية يؤدي الى حالة عامة تتصف بفقدان معنى الحياة المدنية العادية والعيش في حالة طوارىء وتحسب للأخطار الداهمة التي يكتظ بها العالم المحيط بما يتصف به من تهديد وغموض، بالطبع ليس ذلك هو الاطار السليم أو الذي يمكنه تأمين شروط النمو المعافى للأطفال.

ويضاعف من آثار فقدان معنى الحياة المدنية العادية كل الصعوبات والمنغصات الحياتية التي حملتها معها الحرب ومازالت: انقطاع الكهرباء المتكرر، انقطاع المياه، نقص المواد اللازمة لتسيير حياة الناس أو اختفاؤها دورياً مثل الغاز والمحروقات، والخبز وتحول المواطن الى صياد لهذه المواد ما بين الفينة والفينة، بدل الانصراف الى حياته العادية

على أن هناك مستجدات تضاف الى كل ما سبق لتضفي طابع التحول الحقيقي على نوعية الحياة العامة واليومية للناس، وتنتقل بهم الى مرحلة جديدة بدأت تضع المجتمع بكل امكاناته ومقوماته على حافة الانهيار الفعلي، ابرز هذه المستجدات اثنان: انقطاع الصلات

وصعوباتها مع العالم الخارجي والوقوع فيما يشبه الحصار، وانهيار الوضع المالي.

من المعلوم أن جزءاً كبيراً من الازدهار اللبناني كان يقوم على العلاقات والتبادلات مع المحيط العربي والانفتاح على الحركة الاقتصادية الدولية، اما الآن فالتبادل في اتجاه الانحسار الى أبعد الحدود بسبب التدني الهائل في الاتصالات والتفاعلات مع الخارج (صعوبات السفر، صعوبات التأشيرات، التحفظات على قبول اللبنانيين وسد الفرص أمامهم) مغادرة معظم البعثات الدبلوماسية، والمنظمات الدولية، والممثليات التجارية والصناعية والاقليمية للعاصمة بيروت

أما انهيار الوضع المالي فيعود الى الدمار الهائل الذي لحق بقطاعات واسعة من العمران وخسارة الثروات المتراكمة في مناطق كبيرة جداً من لبنان، وانهيار النقد وتراكم المآزق المالية والاقتصادية وهذا كله بدأ يشكل موجة عارمة من الكساد والبطالة

على أن هذه الحالة المستجدة بدأت تهدد جدياً تماسك البنية الاجتماعية اللبنانية وتعرضها للتفتت والتمزق، فالعوز المريع والبطالة واستشراء التعدي على الأموال العامة بدأ يولد موجة من السلوك الجانح وانهيار المعايير الخلقية التي كانت تحكم حياة قطاعات شعبية واسعة سواء لسد الاحتياجات الحيوية أم انجرافاً مع الموجة الشائعة: كل يتدبر أمره كما يستطيع، ومن هنا بداية تفشي ممارسات السلب والنهب والسرقة والتشليح والخطف والتسلط والابتزاز في حالة

من السيادة الكاملة لقانون القوة وفي غياب أي ردع أو عقاب، ومن هنا أيضاً تفشي الادمان على المخدرات والانجراف في الممارسات اللاخلقية والارتزاق.

وسنرى أي آثار ستتركها هذه الحالة في تكيف الناشئة في الأوساط المعوزة أو التي تفتقر الى الحصانة الخلقية الذاتية حتى بدون عوز

طبعاً تتفاوت آثار هذه الحالة الحياتية تبعاً لظروف كل فئة سكانية ومقدار الضغوط التي تمارس عليها وحجم الأزمات التي تعاني منها، وهي تضاف الى آثار الأوضاع الأمنية لتولد واقعاً يهدد مستقبل الطفولة بشكل جدي في لبنان كما سنرى من الاستعراض المتخصص لآثارها في الأقسام الثلاثة التالية:

الآثار النفسية للحرب:

تقسم الآثار النفسية للحرب على الأطفال الى فئتين تتعلق أولاهما بالأخطار والاصابات الأمنية ونبحثها تحت عنوان «صدمات الحرب»، وتنتج الثانية عن عالم الحرب وخصائصه الأسرية والحياتية والاجتماعية، وهي آثار قد تطال بنية شخصية الطفل ويكون لها نتائج أكثر دواماً، وقد درجت العادة على الاهتمام بالأولى دون الثانية نظراً لطابعها الصدمي الملفت للنظر والمقلق، الا أن هذه على ما تولده من قلق لدى المحيط قد تظل أقل خطراً في بعض الأحيان من التأثيرات الخفية التي تطال بنية الشخصية، والنظرة الى الذات والآخرين والوجود.

وفي الحالتين تتفاوت شدة هذه الآثار تبعاً لمدى وطأة الأخطار الأمنية واحتمالات التعرض للاصابات المباشرة، وتبعاً لمدى اضطراب النمط الحياتي بسبب ظروف الحرب

١ ـ صدمات الحرب:

نعالج هنا الآثار النفسية الناتجة عن الأخطار الأمنية على اختلاف أنواعها والتي استعرضناها في القسم الأول س البحث، وتأخذ هذه الآثار شكل الاضطرابات النفسية والسلوكية التي قد تصل حد الصدمة بما لها من أعراض.

ولقد ثبت س التجربة العيادية ومن جملة الدراسات الميدانية على الأطفال الذين تعرضوا للأخطار الأمنية أن مقدار الاضطراب النفسي يتوقف على العوامل التالية اضافة الى شدة الخطر بحد ذاته ومدى استمراره:

ـ فقدان الطفل لوسائل الدفاع ضد الصدمات كما هو شأن الراشدين فالطفل غير مسلح ذاتياً بما يكفي للاستيعاب الملائم للقلق المصاحب للتعرض للأخطار الأمنية، ولذلك فان استجابته قد تكون أشد أو أكثر اضطراباً من استجابة الراشد.
ـ عدم قدرة الطفل على الاستيعاب العقلاني لما يجري، س مثل "لماذا يضربوننا أو يغيرون علينا طالما أننا لم نفعل لهم شيئاً؟" ومن مثل حيرته أمام صراع الحلفاء ومعاركهم الضارية مما يجعله يفقد التوجه في نظرته الى العالم وتقسيمه الى حلفاء وأعداء.

ـ تتوقف آثار الأخطار الأمنية على الأطفال على مدى قدرة الأهل على تحملها واستيعابها، فالطفل يتخذ له من موقف أهله مرجعاً لتقدير استجابته للخطر، فاذا شعر أن الأهل مستوعبون للموقف ومحافظون على رباطة جأشهم، تحمل الخطر بسهولة نسبية، الا أنه يصدم ويستسلم للقلق حين يرى أنهم خائفون بدورهم.

ولقد ثبت من عدد من الدراسات أجريت على أطفال بيروت الغربية لتقدير مدى الآثار النفسية للحرب عليهم أن الاضطرابات السلوكية وارجاع القلق تظهر عند الصبيان أكثر منها عند البنات، وتظهر بوضوح عند الأطفال المنفصلين عن أسرهم (الأطفال المقيمون في مؤسسات رعاية) أكثر مما تظهر عند الأطفال الذين يعيشون مع أسرهم، كما ظهر من الاختبارات المطبقة[1] أن أكثر الأعمار تأثراً بأخطار الحرب هي الفئات العمرية من ٣ ـ ٧ سنوات ومن ١٢ ـ ١٤ سنة، وأن أقل الفئات العمرية تأثراً هي من ٨ ـ ١١ سنة وهي الفئة المعروفة بسن الكمون، وظهر أخيراً خلال نفس الدراسات أن أشد ما يقلق الأطفال هو خشيتهم من فقدان أهلهم بالموت، وبالتالي فقدان حماية هؤلاء الأهل ومجابهة الأخطار الأمنية منفردين.

تصيب صدمات الحرب أكثر ما تصيب الأطفال الذين يعيشون في مناطق الاشتباكات المسلحة الشديدة والمستمرة (مثل خطوط التماس) كما تصيب الأطفال الذين هجروا أسرهم مع التعرض للعنف أو المجازر

---

1 - R. Day and P. Saigh, Psychological Assessment of Children Status in Lebanon, AUB BEIRUT, 1985.

بالطبع كلما وقع ضحايا من الأسرة كانت الصدمة أكبر، خصوصاً اذا شهد الطفل وقوع هذه الضحايا وما حل بها (كأن يقتل أحد ذويه المباشرين في قصف أو تصفية أو مجزرة) أما ابرز مظاهر الاضطراب النفسي المصاحبة لصدمات الحرب فهي:

- **الاثارة العصبية**: الخوف والرعب وتوقع الأذى والخطر، الخوف من الأصوات المدوية والمفاجئة، اليقظة الليلية والأرق، الخوف من الوحدة، الاصرار على النوم مع الأهل، والكوابيس والأحلام المرعبة.

- **الأغراض النفسية الجسدية**: الطفح الجلدي، ارتفاع الحرارة والمرض وانقطاع الشهية.

- **الأعراض النفسية**: تأخر الكلام، النكوص الى وضعية طفلية البوال، الانطواء والسلوك الانسحابي.

- **الأعراض السلوكية**: الهياج الحركي وعدم الاستقرار، عدم القدرة على التركيز، تفجر السلوك العدواني، المشاجرات والميل الى الأذى وتصرفات التشفي

وتتصعد هذه الآثار في حالة العيش في الملاجىء لفترات طويلة وتقييد حرية الحركة وانحسار المجال الحيوي، حيث يزداد التوتر والهياج والقلق، والسلوك العدواني والارجاع الخوافية.

أما التهجير الذي يقتلع الأسرة من مجالها الحيوي نتيجة لموجات ارهاب وعنف وقصف، يصب على مجموعات سكانية

بأكملها، وخصوصاً اذا رافقتها مجازر فإن هذا يشكل أشد حالات صدمات الحرب، فهنا تضاف صدمة الاقتلاع الى صدمة التهديد الأمني.

وأخطر ما في صدمة الاقتلاع ذلك الاحساس بالعجز والهزيمة ان احساس الطفل ويقينه بأن والديه عاجزان عن حمايته من الأخطار الخارجية، وعاجزان عن الدفاع عن مجالهما الحيوي يحدث جرحاً نفسياً لا يمكن أن يندمل بسهولة في شخصيته، فالتهجير هو في النهاية هزيمة، وهو يفجر أشد أشكال القلق البدائي المصاحب لمشاعر العجز والنقص، فالانسان يقوى بمجاله الحيوي المألوف له، شأنه في ذلك شأن بقية الكائنات الحية، فاذا ما أخرج من هذا المجال الحيوي فانه يفقد كل احساسه بالمنعة والحصانة، والمنزل ليس مجرد مكان للايواء انه مجال التاريخ الذاتي الحميم، وهو موضوع الخصوصية وسياجها، انه معقد الكيان الذاتي، واذا اقتلع الانسان من منزله عنوة أو ترهيباً فان ذلك يحمل معنى الاعتداء على نواة الذات عينها وتهديدها وافقادها احساسها بالحصانة الداخلية والمنعة

ومن هنا تظهر لنا أبحاثنا العيادية التي قمنا بها مع طلاب الدراسات العليا الآثار النفسية للتهجير، كما أن الصدمات كبيرة وتمس نواة الشخصية، مما يولد زلزالا يعصف ببنية الأسرة ذاتها: طغيان احساس خفي بالتعرض والانكشاف، وفقدان القدرة والمنعة وما يرافقه من أحاسيس بفقدان ميزان القوى ما بين الذات والعالم، فالتهجير أكبر من كونه مأساة اقتصادية أو سكانية هو مأساة وجودية

كاملة حيث تتغير دلالة الوجود وتتزعزع صورة الذات، ومن هذا ما لاحظناه خلال أبحاثنا على الأسر المهجرة من ارتباك وضيق وحيرة ومشاعر يختلط فيها الأسى والعار بالنقمة والعدوانية في حالة احساس دائم بالانكشاف وفقدان الحصانة، ولقد تبين لنا أن موقف الانسان المهجر عنوة هو دوماً موقف دفاعي في العلاقة مع الذات ومع الآخرين هناك شعور بالذنب نتيجة القصور في الدفاع عن الذات والذود عن الحياض يقض مضجع الانسان المهجر، ولذلك فان كل خطابه دفاعي وكل علاقاته دفاعية: من تبرير الى تجنب وشك وحذر الى محاولة تجميل الصورة الى الانكفاء على الذات ورفض التجاوب (خوفاً من الانكشاف) الى العدوانية الشديدة ضد كل الناس وكل شيء، الى اسقاط العيب والعار على الآخرين الى الخوف من الانهيار أمام الضغوطات التي تتجاوز القدرة على الاحتمال، الى الهروب النكوصي في الماضي السعيد والتغني بأيام هناء العيش وكرامته، ويرافق هذه الأرجاع بعض تصرفات الاستسلام والتخلي عن المسئولية والسلطة، مع ما يرافق ذلك من تبدل في الأدوار وتغير في المكانة خصوصاً مكانة رب الأسرة وسلطته الفعلية والنفسية، ناهيك عن الانجراف في الانحراف والوقوع في وضعيات الخطر الخلقي التي تهدد جدياً تماسك الأسرة وتكيف الأبناء ومستقبلهم، واذا لم تتيسر للأسرة المهجرة وسائل الدعم الكافي أو كانت تفقد الامكانات لاستيعاب الوضعية وتجاوزها فان انعكاساتها على الأولاد لا تخلو من الخطر، فازاء ذلك الجرح الدفين وفقدان التوازن ما بين الذات والعالم يكون على الطفل اما الرضوخ والاستسلام لوضعية الضعف

والانكسار وإما الاستجابة التعويضية بالعنف والعدوانية حيث لا يعود يرى سوى العنف وسيلة للتعامل مع العالم، وإما الهروب الى الأمام والانجراف في السلوك الجانح، هذه الأرجاع تهدد جدياً التوازن النفسي والتكيف المستقبلي.

تظهر الآثار النفسية لصدمات الحرب جلية من خلال رسومات الأطفال والعابهم وتعبيراتهم، فغالبية هذه الرسومات تحفل بصور الأسلحة والمعارك والنيران والقذائف، الدمار والموت هما الموضوع الرئيسي: دمار المنازل، اصابات آلات الحرب ودمارها، الموتى والجرحى والاسعافات، اما الألوان فهي ألوان القلق والعدوانية المتفجرة (الأسود والداكن والأحمر) وأما الخطوط فكثيفة تعكس مدى طغيان مشاعر انعدام الطمأنينة

وأما الألعاب فهي عبارة عن مسرح تفريجي حقيقي: ألعاب الحرب تحتل الحيز الأبرز من معارك الى حواجز خطف وتصفية على الهوية الى أعمال الاغاثة، وهنا يصرف القلق المتراكم من خلال هذه الألعاب التي تقلب فيها الأدوار، فالطفل الضحية يجد شيئاً من التوازن النفسي من خلال لعب دور المعتدي والمهدد دور من يملك التحكم بمصائر الآخرين مما يطلق عليه تعبير التماهي بالمعتدي: حيث المهدَّدُ يصبح مهدِّداً في قلب تام للأدوار

وأما التعابير ومراكز الاهتمام فهي كلها حربية بدورها حتى ليصح القول أنه نشأت عن هذه الحالة ثقافة حربية فتحليل اللغة ونوع المفردات المستخدمة في التخاطب يبينان طغيان مصطلحات الحرب في

عملياتها وأدواتها: التفجير، القصف، القتل، التفخيخ، التقنيص التهجير، التصفية، والاقتحامات

وفيما يتعدى الصدمات النفسية المباشرة والتي قد تكون قابلة للعلاج والتعويض، فان ما يجب أن يشغل البال في هذه الوضعية هو الآثار الدائمة التي تتركها صورة الوجود، هناك فقدان لمعنى الحياة المدنية العادية وهناك فقدان لصورة العالم الواعد الزاخر بالفرص والامكانات، وهناك طغيان لصورة العالم الخارجي المهدد الذي يفتقر الى عناصر الأمان والطمأنينة.

٢ ـ عالم الحرب وتأثيراته:

تتخذ الآثار النفسية على هذا الصعيد طابعاً خفياً ولكن أكثر دواماً لأنه يحدد مقومات بناء الشخصية ونموها، وتتضافر على هذا الصعيد عوامل المحيط الحيوي الذي يعيش فيها الطفل مع التغييرات التي تطرأ على نمط العلاقات الأسرية نظراً لما تتعرض له من ضغوطات.

أما على صعيد المجال الحيوي فان أبرز المؤثرات اضافة الى صورة العالم الخارجي المهدد تتمثل في تحديد المجال الحيوي وما ينتج عنه من انحسار وجودي، يفقد الطفل بسبب الأخطار المتنوعة كل فرص الانطلاق ويفرض عليه التحرك ضمن دائرة قد تصبح مفرطة في ضيقها مما يؤدي الى عالم فقير ونكوصي. كما أن المجال الحيوي

الذي يتحرك فيه الطفل في المدينة خلال أوقات السلم قد أصبح مصادراً من قبل العديد من العناصر والتنظيمات المسلحة، معظم التجهيزات والمؤسسات التي تساعد على الانطلاق والانفتاح على العالم وممارسة النشاطات المنمية إما أنها مصادرة أو متوقفة عن العمل نتيجة الانهيار في مقومات الحياة المدينية ذاتها، حتى أن شبكة العلاقات وفرص التفاعل مع الأتراب والأصحاب تتضاءل لتقتصر على الجيران المباشرين، ان النتيجة المباشرة لهذه الحالة هي الارتداد الى سلوك نكوصي يلازمه افقار ثقافي وحياتي وحرمان من تفتح الامكانات الذهنية وتتكرس هذه الحالة من خلال حياة السلبية التامة التي تفرض على معظم الأطفال الذين يمكثون فترات طويلة في منازلهم وليس لديهم من متنفس الا أفلام الفيديو ذات النوعية الرديئة فهذه الأفلام التي يقضي الطفل ـ مدفوعاً الى ذلك برغبة أهله في الحد من هيجانه وازعاجه ـ جل وقته متفرجاً عليها تلقي به في السلبية وموقف التفرج حارمة اياه من التعامل مع الحياة واكتشافها والسيطرة عليها وصناعتها.

ويضاف الى هذا النمط من الوجود المتصف بالسلبية والانحسار انفجار أطر الزمان والمكان فالتقلبات والمفاجآت الدائمة تحول دون أي تخطيط للمستقبل، وتدفع الى العيش في الحاضر من موضع المنتظر

ان انفجار الديمومة بهذا الشكل واقتصارها على الحاضر وحده يمثل خطراً جدياً على التكيف للمستقبل الذي لا يتم الا عبر انتظام

سيرورة الزمان، فهنا تنحسر قيمة الأشياء الى ما هو ممكن حالياً، مما يفتح باب الميول الاستهلاكية واقتناص الفرص كأسلوب أساسي في التعامل مع الحياة.

أما انفجار المكان فيحمل خطورة كبيرة على تكوين الهوية الشخصية فالوطن الفسيح كوحدة جغرافية كيانية هو أحد مرتكزات تكوين الهوية الوطنية التي تمثل اطار الانتماء الذي لا يمكن لأي هوية شخصية أن تقوم بدونه.

ان انفجار الكيان الجغرافي للوطن الى كيانات محلية ومناطقية يصيب الهوية الوطنية بأكبر الأضرار، حيث تحل هويات غامضة المعالم محلها، ويؤدي ذلك الى الانغلاق على الذات الذي يفتح السبيل واسعاً أمام كل أشكال التعصب والعدوانية تجاه الجماعات الأخرى، المجهولة أو المتجاهلة

فهوية اللون الواحد والمنطقة الواحدة تجعل النظرة الى الوجود منحسرة وفقيرة بقدر ضيقها ومحدوديتها، ويدخل ضمن نفس الاطار اضطراب المرجع الموجه للشخصية وما يصاحبه من اختلال في التمثل النفسي الرمزي للقانون نتيجة لانهيار السلطة المركزية، وحلول سلطات متعددة الألوان ومتنوعة المتانة والصلاحية محلها، خصوصاً أن هذه السلطات البديلة لا تتمتع دوماً بالاستقرار الكافي الذي يكسبها القوة الرمزية الضرورية لتصبح مرجعاً بديلا ومحدد المعالم.

ان اضطراب تمثل القانون يؤدي الى اختلال التوازن ما بين أركان الشخصية أي ما بين النزوات والضوابط الذاتية س جهة والتعامل مع ضرورات الواقع الموضوعي والذاتي من جهة ثانية اختلال تمثل القانون يضع الطفل أمام قلق مزدوج: الخوف من طغيان نزواته والاغراء في الانجراف معها، والخوف من طغيان الأخطار الخارجية التي تشكل مفهوم القانون المتمثل ذاتياً مصدر الشعور بضبطها وحمايته منها، وهنا نعود الى صورة العالم المهدد الذي يحكمه قانون القوة وعلاقات القوة، وحيث يكون على كل انسان أن يحمي نفسه بالوسائل البديلة التي تتوفر له، ويكون الطفل هو الضحية الأولى على الصعيد النفسي لهذه الوضعية، نظراً لقلة حيلته، وفقدانه ذلك الاحساس بالحصانة والمناعة الداخلية

لا تقتصر آثار الحرب النفسية على خصائص المجال الحيوي العام وحده، بل تضاف اليها خصائص المجال الحيوي الأسري وتتفاعل معها، ويكاد الجو الأسري ونوع العلاقات ضمنه يشكل عنصراً حاسماً في تحديد الآثار النفسية والاجتماعية للحرب على الأطفال، فالقوى والعوامل الفاعلة في وضعية الحرب تمارس تأثيرها من خلال مصفاة الأسرة، نوع الموقف منها، أسلوب التعاطي معها وانعكاساتها على جو الأسرة.

وما زالت الحرب تترك بصماتها التي لا تمحى على تكوين الأسرة وحياتها وجوها، وتتراوح المسألة ما بين انهيار الأسرة وتفككها نتيجة لظروف الحرب وضغوطاتها وما يستتبع ذلك من انعكاسات

على توازن الأولاد وبين تراخي الأسرة في القيام بالوظائف النفسية والتربوية والاجتماعية وما يستتبعه من تعثر في عمليات التنشئة السليمة والنمو المعافى، وبين تشتت الأسرة وانفصال أعضائها عن بعضهم البعض لمدد تطول أو تقصر، أو من خلال تسرب الصراعات الخفية اليها وطغيان التوتر والمآزق الوجودية عليها وما لها من انعكاسات تمارس أثرها في الخفاء.

ان أضرار الحرب لا تقتصر على الصدمات فقط بل تتوقف في المقام الأول على مدى الضرر اللاحق بالحياة الأسرية وهو ليس بالقليل وان لم يكن كله جلياً للعيان.

واذا كانت الصدمات التي تصيب الأسرة من تهجير واصابات وأضرار أو تفكك وتشتت بغنية عن تبيان آثارها السلبية على الأطفال فان الضغوطات والأزمات التي تنصب عليها تحتاج الى ابراز فعلها الخفي

هناك في المقام الأول كل حالات القلق الأمني الذي يحاول الأهل اخفاءه بشكل أو بآخر الا أنه ينتقل الى الأولاد من خلال التواصل الخفي ومن خلال ما يولده لدى الأهل من توترات تنعكس على تصرفاتهم وردود فعلهم والتي يمتلك الطفل حساسية شديدة لها، ويتأثر بها بعمق وبصمت، هناك مثلا سلوك الافراط في التحوط من خلال فرض القيود المشددة على حركة الطفل وتحديد مجاله الحيوي، وهناك حالة القلق الدائم والتعبئة النفسية المستمرة لدى الأهل مما

ينعكس قلقاً مضاعفاً على الطفل وهناك حالات الصراع والنزاعات الزوجية الناتجة عن حالة الضغط والتوتر التي يعيشون فيها والتي تنصب على الأبناء.

وهناك حالة التدخل المفرط من قبل الوالدين وخصوصاً الأب نتيجة لبقائه في المنزل لفترات طويلة بسبب الظروف الأمنية مما يربك عالم الطفل ويفقده تلقائيته وخصوصيته، وهناك حالات الانهيار العصبي الخفي أو السوداوية الخفية والتي تثقل جو الأسرة بوطأتها وتؤدي الى انحسار التفاعل وبرودته وعدم التسامح مع الأطفال أو تحملهم وهناك كل حالات الاضطراب والاختلال في قيام الأسرة بوظائفها وادارة حياتها وتخطيط مستقبلها والوقوع في حالة الانتظار القلق في وضعية عدم التأكد وفقدان وضوح الرؤية لما سيأتي، مع ما يحمله ذلك من تذبذب ما بين الافراط في التفاؤل والافراط في التشاؤم مما يفقد الأسرة طابعها المستقر والمنسجم، وهناك أخيراً الخوف المتزايد من المستقبل وما سيحمله من تحديات وتهديدات أصبحت جدية فعلا مع استفحال الضائقة الاقتصادية والانفتاح على أسوأ الاحتمالات ان استفحال الأزمة الاقتصادية بدأ يشكل بحد ذاته تهديداً كبيراً للاستقرار الحياتي والأسري ويمثل حالة قلقية تتجاوز الكثير من المشكلات الأمنية في شدتها، ويفتح الباب أمام تفجر الصراعات والنزاعات الأسرية أو يلقي الوالدين في حالة س الاستسلام اليائس مما يفقدهم سلطة الدور والمكانة لدى الأبناء.

هذاالنمط من الوجود بجوانبه الظاهرة والخفية يحمل في طياته انعكاسات تنصب على بنية شخصية الطفل عينها، فتؤدي الى ادخال الخلل على نموها المعافى وتوازنها وانغراسها، واذا كانت الأخطار الأمنية تقتصر على الفئة الأكثر غبناً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، فإن انعكاسات جو الأسرة وعالم الحرب تصيب شرائح واسعة من الأسر، وبالتالي تلحق الضرر بمعظم الأطفال.

الآثار الاجتماعية للحرب:

أحدثت الحرب وما رافقها من عمليات تدمير عمراني ومؤسسي تدريجي تغييرات كبيرة ونوعية في البنية الاجتماعية نفسها، مما كان له أكبر الأثر على الناشئة ونموهم وتكيفهم المستقبلي، اذ من المعروف أن سلامة متانة عملية التنشئة تتوقف على مدى عافية البنية الاجتماعية وتماسكها.

عملية التنشئة بدأت تتعرض لتهديد جدي نتيجة لما حل بالبنية الاجتماعية في لبنان ولذلك سنعرض في خطوة أولى الأضرار اللاحقة بهذه البنية ومن ثم ندلف الى الحديث عن الآثار الناتجة عنها على تكيف الناشئة.

أبرز معالم الضرر الذي لحق بالبنية الاجتماعية يكمن في تفتت الوحدة الجغرافية الوطنية للبنان وحلول سلطات محلية بديلة محل السلطة المركزية التي وهنت سيطرتها وتغطيتها للمجتمع. ولقد صاحب ذلك فرز سكاني على أسس طائفية أو مذهبية محلية مما أدى

الى اضطراب الانتماء وانحساره وتضعضع الهوية الوطنية واستبدالها بهويات محلية تفتقر الى المتانة والاستقرار وتتغذى من الانغلاق المتزايد وبروز مشاعر الحذر والعداء،ان وهن المعيار المرجعي الموحد والموجه للسلوك يهدد عملية الانتماء الاجتماعي واستقرار المعايير والقيم والتوجهات، وهذه بدورها تعيق عملية التنشئة الاجتماعية السليمة للأطفال.

كما أن وهن السلطة وفقدان القانون لقوته الملزمة والرادعة موضوعياً وقوته المرجعية نفسياً، أدى الى سيادة قانون بديل يقوم على القوة المسلحة يتحكم بالعلاقات الاجتماعية.

وهكذا فالمسألة تجاوزت مبدأ الغلبة للأقوى كي تطال نوعية العلاقات المواطنية التي فقدت الكثير من طابعها التعاضدي ليحل محله تفشي الفردية والتركز حول الذات، ويفتح هذا الواقع المجال عريضاً أمام تفشي السلوك الجانح الذي لا يجد له من حدود في التعدي على القانون وعلى استباحة كل ما هو عام ومشترك، واذا أضفنا الى ذلك وهن المؤسسات العامة وانهيار فعالية معظمها في تأطير نشاط المواطن وتقنينه، وفي لعبها دورها المرجعي واذا أضفنا اليه أيضاً أن هذه المؤسسات أصبحت في العديد من الحالات مستباحة للاستغلال من كل صاحب قوة نجد أننا أصبحنا على عتبة انهيار البنية الاجتماعية، وليس هناك من حاجة لتباين آثار ذلك كله على الأطفال وسلامة تنشئتهم ذلك أن البدائل التي تبرز ليست لها من القوة

ومقومات الديمومة ما يجعلها مرجعاً ولا حياة سوية اجتماعياً بدون اطار اجتماعي مرجعي يتصف بالمتانة والقدرة على التوحيد.

ان وهن القانون واستباحة المؤسسات وانهيار الحدود تخلق جميعها حالة اللامعيارية الاجتماعية (فقدان قدرة المجتمع على ضبط سلوك الأفراد، وفقدان الفرد للمعايير الموجهة لسلوكه) ومن المعروف أن اللامعيارية تتلازم مع تفشي الانحراف في كل أشكاله ودرجاته، ولهذا فلا عجب أن نجد كل الممارسات الجانحة مزدهرة في المناطق والأماكن التي تفتقر الى المعيارية الاجتماعية: السرقات وعمليات السلب والتشليح في وضح النهار، التعديات على الأشخاص والأملاك والمؤسسات بدون رادع، وهو ما ولد حالة فعلية من وضعية الخطر الاجتماعي، فالمواطن ليس آمناً على ذاته وذويه ومقتنياته ومقدراته لا في منزله ولا خارج هذا المنزل، ويضاف الى ذلك بالطبع تفشي كل المغريات بالسلوك المنحرف والجانح من ادمان على ممارسات لا أخلاقية الى عمالة وارتزاق، وحين تطغى المعايير الجانحة بهذا الشكل فانها تنشر اغراءاتها على قطاعات متزايدة في اتساعها من فئات المجتمع وأخطر انعكاسات لهذه الحالة تمارس آثارها على الناشئة وخصوصاً تلك الفئات التي تفتقد مقومات الحصانة نظراً لضآلة امكاناتها وما تعانيه في الأصل من حرمان مزمن، فهذه الناشئة التي لم تأخذ حظها من الفرص الاجتماعية والتي تتعرض لأكبر قدر من تفشي اللامعيارية الاجتماعية في مجالها الحياتي تجد لها في نماذج السلاح والقوة وما يرافقهما من سطوة واغراءات المنفعة والكسب من

التصرفات المنحرفة، ما يجذبها اليه بشدة لاعطاء وجودها معنى وقيمة ولاعطائها وهم تعويض الفرص الضائعة، وهو ما يمنعها من التوجه نحو الاعداد للمستقبل (غير الأكيد على كل حال) جرياً وراء فرص الغنم الآني.

وتتفاقم هذه الحالة نتيجة لتدخل متغيرين متفاعلين: التهجير والأزمة الاقتصادية.

ان الأضرار التي يحملها التهجير على التكيف الاجتماعي تبلغ حداً مقلقاً فالسكن في أحياء مكونة س خليط سكاني لا رابط بينه وكذلك السكن في بنايات قيد الانشاء، أو مساكن بالاحتلال وخصوصاً السكن في أمان تفتقر الى مقومات البيت كالمكاتب التجارية والمؤسسات العامة وما يرافقه س ازدحام وفقدان الحرمة والحياة الحميمة والشيوع، يشكل حالة للّامعيارية الاجتماعية فهنا تصاب المعايير الضابطة للسلوك بالوهن والتراخي وتبرز من خلال استسهال الانجراف وراء الممارسات المنحرفة والجانحة ولهذا فان الأسر المهجرة بهذا الشكل هي في وضعية خطر خلقي حقيقي والأبناء هم ضحايا هذا الخطر، فالأسرة تتعرض للمغريات من الخارج اضافة لتعرضها للأزمات الداخلية خصوصاً في حالة وهن نظام السلطة فيها

وتأتي الأزمة الاقتصادية وما تحمله من تضخم متسارع بوتيرة مذهلة تفلت من كل قدرة على استيعابه وما ينتج عنه من بطالة متفاقمة لتزيد من وضعية الخطر الخلقي جاعلة منها أمراً تتعذر

مقاومته، هذه الفئات السكانية المهجرة وغيرها مهددة فعلياً بفقدان تماسكها وتوازنها وانهيارها فاستفحال البطالة والتضخم يصعد حالة اللامعيارية الاجتماعية وتكون النتيجة كما نشهد حاليا هروباً من المأزق في السلوك الجانح س ناحية وفي الانكباب على الملذات من ناحية ثانية: الخمرة وتفشي تعاطي المخدرات والتحلل الجنسي والأسرة التي تتعرض لهذا الخطر لابد أن يصاب أبناؤها مما يلقي بهم في نفس الحلقة: الاقدام على ممارسة النشاطات الطفيلية والبحث عن استهلاك الممكن من البقايا السلعية، والاستجداء وصولا الى السلوك الجانح الأكثر نشاطاً مع تقدم السن، فردياً حيناً ومن خلال الانتماء الى عصب جانحة في أغلب الأحيان.

ان الآثار الاجتماعية للحرب تمثل مرحلة متقدمة من الخطورة الفعلية على الأطفال على مستوى الانتماء والتنشئة والتوجه المستقبلي الذي يمثل المؤشر الأبرز على التكيف الاجتماعي، فهذه الناشئة المعرضة للأخطار الخلقية الراهنة هي ناشئة بلا غد لأن دروب الاعداد للمستقبل ليست مفتوحة أمامها، وبالتالي فهي ناشئة مدفوعة دفعاً الى موقع الهامشية الاجتماعية وسوء التكيف.

الآثار التربوية للحرب:

يقسم أثر الحرب على التربية والتعليم الى مستويين يقع على المستوى الأول الأضرار اللاحقة بالعمليات التربوية في القطاع المدرسي الأكثر تقدماً (المدارس ذات المستوى الجيد) أما المستوى

الثاني فيشمل القطاع الأكبر والأوسع وهو قطاع التعليم الرسمي ومن ضمنه الهدر التعليمي اللاحق بالفئات السكانية المهجرة وتلك الأكثر تعرضاً للأخطار الأمنية للحرب.

١ ـ القطاع التربوي المتقدم:

يتضح من دراسة أجراها فريق من أساتذة الجامعة الأمريكية[1] على أوضاع التعليم في بيروت الغربية بعد الاجتياح الاسرائيلي أن آثار الحرب على التربية ليست هينة وان لم تكن كلها منظورة، وتتمشى نتائج هذه الدراسة مع العديد من الدراسات الأخرى التي أجريت على المناطق التي تضررت من الحرب: هناك نقص في عدد المدارس، وتدهور في مستويات التعليم، وأضرار وتدمير للمؤسسات التعليمية وانخفاض عدد المعلمين المؤهلين، وازدحام المدارس المتوفرة وانتقال العديد من المدارس من مقراتها الأصلية (خطوط التماس ومناطق الاشتباك) الى مقرات رديئة (بنايات سكن) ولكنها أكثر أمناً

أكثر المدارس تأثراً بالحرب هي تلك الواقعة على خطوط التماس وأماكن الاشتباكات فهي التي أصيبت بأكبر نسبة من الأضرار في المباني والتجهيزات التربوية والتسهيلات المختلفة

أما الخسارة في الوقت التعليمي فهي كبيرة بدورها وتصل أحياناً الى السنتين خلال المرحلة الابتدائية وتعود نسبة كبيرة من

---

1 Carlton K. Knight: In the Status of Children in Lebanon, A Multi-disciplinary Assessment, AUB BEIRUT, 1985.

حالات اغلاق المدارس الى تردي الحالة الأمنية من ناحية والى الأضرار التي لحقت بهذه المدارس تهديماً وسرقة خلال الغارات والاشتباكات، وأما الخسارة في المواد التربوية فهي أيضاً كبيرة، والعديد من المدارس استنكف عن تعويضها للسرقات المتكررة خلال الغارات والاشتباكات ويصاحب ذلك توقف في خطط التطوير والتوسع التربوي

أما البرامج والمناهج فلقد تعرضت للانحسار والافقار، حيث ألغيت معظم مواد الاجتماعيات (مواد التنشئة والانتماء) واقتصرت العمليات التعليمية على المواد الأساسية من لغات وعلم ورياضيات واقتصر التعليم في هذه المواد على المفاهيم الأساسية في كل موضوع، كما انخفض عدد ساعات التدريس ووصل في بعض الحالات الى ٣ ساعات يومياً نتيجة للعمل بنظام الدوامين أو الثلاثة دوامات بسبب تجميع طلاب المدارس في الأماكن الأكثر أمناً

وأما الروابط مع المحيط فلقد تأثرت بدورها، حيث انحسر النطاق الجغرافي لمصادر الطلاب على الرفقة المحيطة بالمدرسة ، وهو ما أدى الى تصعيد حالة العزلة الاجتماعية والوطنية نتيجة للحد من عمليات الاختلاط والتفاعل، كما أن الروابط مع المحيط قد وهنت نتيجة للعمل بنظام الطوارىء تبعاً للمفاجآت الأمنية.

أما الطلاب فان الدراسة قد أظهرت أن حوالي ٢٠٪ منهم يعاني من تأخر تحصيلي لمدة سنتين، وتبرز المشكلة بوضوح في الموقف من التعلم: تراخٍ في أداء الواجبات المدرسية، تشتت الانتباه والعجز

عن التركيز، وصعوبات الاستيعاب، أما أبرز الظواهر على هـذا الصعيد فهي مشاكل الانضباط: كثرة الغياب، تراخي الشعور بالمسئولية، التهرب من انجاز الواجبات البيتية، تدني احترام المعلمين، ازدياد محاولات الغش، والانشداد نحو النشاطات الميليشياوية.

وأما مؤهلات الهيئة التعليمية فلقد حل بها الضرر أيضاً حيث ترك أكثر العناصر تأهيلا العمل التعليمي بحثاً عن أبواب أخرى للرزق نظراً للضائقة الاقتصادية، ولقد اضطربت نتيجة لذلك عملية تأمين البدائل المؤهلة

٢ ـ القطاع التعليمي الشعبي:

ان الأضرار اللاحقة بالمدارس الرسمية المجانية الخاصة وشبه المجانية لا تقاس بما حل بالقطاع التربوي المتقدم، فآلاف المدارس الرسمية تعرضت للاقفال والخراب بسبب الغارات والدمار الناتج عنها، وبسبب الاجتياح الاسرائيلي، ومن ثم الاشتباكات المسلحة، ومعظم تجهيزات هذه المدارس قد اتلف أو سرق، وصعوبات الاصلاح وتعويض التجهيزات كبيرة، كما أن الآلاف من هذه المدارس تحول دورياً أو بشكل دائم الى مراكز لايواء المهجرين.

وأما المعلمون فان الاضطراب الحاصل في عملهم يمثل مشكلة حقيقية، فالآلاف منهم لا يلتحق بعمله اما لأسباب أمنية، أو نتيجة للتحول الى مصادر أخرى للكسب لسد الاحتياجات المادية.

وأما العمليات التعليمية فهي أقرب الى أن تكون اسمية منها فعلية، حيث المناهج لا تدرس الا جزئياً وما يدرس منها لا يستوعب مما يجعل العديد من التلاميذ في حالة أمية مقنعة، هذا اضافة الى كثرة الغياب وترك الدراسة بسبب الحاجة الى الكسب.

وتبقى المشكلة الابرز على صعيد المهجرين فأبناء هؤلاء قد حرموا فرصة الاستقرار والانتظام الدراسي والنسبة الكبرى منهم تظل بلا مدارس نتيجة لترك مكان الاقامة الأصلي وعدم توفر مدارس بديلة، وهذه الفئة الأخيرة سرعان ما تقع في الأمية شبه الكاملة، وتجد نفسها في حالة من سوء الاستعداد للدراسة بعد تأخر أكثر من سنتين تحصيليتين، هذا القدر من التأخر يسد الباب أمام التكيف المدرسي، وبالتالي أمام حسن اعداد المستقبل مهنياً، وتكون النتيجة عملية تهميش وتسريب واسعة النطاق، وهي عملية تستفيد منها التنظيمات المسلحة التي تجد لها في هذه الفئة من الناشئة خزاناً بشرياً لا ينضب.

وهكذا تتضافر في هذه الحالة مؤثرات الأوضاع الاجتماعية والحياتية للحرب، مع مؤثرات الأوضاع التعليمية مما يشكل تهديداً جدياً لفئة متزايدة في أعدادها من الأطفال والناشئة في الاعداد للمستقبل والتكيف الحياتي.

وفي كل الحالات هناك أذى عام يلحق بالتربية نتيجة للحرب هو تدهور ووهن الهوية الطلابية، وكما أن الهوية الذاتية هي أساس

تشكيل الشخصية، والهوية الاجتماعية هي أساس الاندماج والانتماء الاجتماعي، فان الهوية الطلابية هي أساس الاعداد للمستقبل والنجاح المهني اللاحق.

ان تدهور الهوية الطلابية يؤذي صورة الذات المهنية المستقبلية ويدفع بالناشئة الى البحث عن الاستهلاك من خلال التركيز على الحاضر وما يتضمنه من مغريات، في حالة من الهروب الى الأمام الى وهم النضج المبكر والوصول السريع.

الخاتمـــــة :

تتعدد ميادين الحرب اللبنانية وأطرافها وأشكالها وتتعدد بالتالي آثارها، فالمقاومة ضد الاحتلال، رغم فداحة الخسائر المادية والبشرية التي أنزلها بلبنان، تستنهض الهمم وتعبىء الطاقات وتوحد الشمل وتخلق جواً س البطولة يقدم للأطفال نماذج متقدمة في قيمتها للتماهي وبناء الهوية الذاتية والشعور باعتزاز الانتماء، تعوض هذه الوضعية كثيراً س صدمات الحرب وتساعد على تحملها، أما الحرب ذات الطابع الأهلي فهي أكبر ضرراً على الطفولة حيث لا تقتصر على الأخطار الأمنية وما تسببه من صدمات، بل تتجاوز ذلك كما رأينا لتطال بنية ونوعية المجال الحيوي والتي تنعكس بدورها أزمات تصيب بنية الشخصية وعملية التنشئة الاجتماعية

واذا كانت الصدمات النفسية المتولدة عن الأخطار الأمنية قابلة للعلاج وللاستيعاب ضمن ظروف ملائمة، فان الأضرار النفسية الخفية والاجتماعية والتربوية تهدد بترك آثار دائمة قد يتعذر تعويضها اذا استمرت الحرب.

ولقد وصلت الوضعية حالياً الى النقطة الحرجة التي استنفدت جل طاقات التحمل والاستيعاب وبدأت مرحلة تغيير نوعي في نمط الحياة تنعكس تغييرات دائمة نفسياً واجتماعياً، وهذا هو مصدر الخطر الأكبر على الطفولة ونموها المعافى وانفتاحها على المستقبل.

ولابد بالتالي من دق ناقوس الخطر في هذا الصدد، فاذا لم تتوقف الحرب بسرعة وتستعيد الحياة شيئاً من طبيعتها العادية سنكون بازاء جيل سيتعذر عليه ولوج أبواب المستقبل الواعد.

بالطبع تتنوع آثار الحرب ومداها تبعاً لنوع الأخطار التي تعرضت لها كل من الفئات السكانية اجتماعياً واقتصادياً وجغرافياً الا أن أبرز الأضرار لحقت ـ وما زالت ـ بأكثر الفئات غبناً في الأصل، بينما هناك فئات أقل عدداً كانت ـ وما زالت ـ المستفيدة من هذه الحرب، وهكذا نجد أنفسنا بازاء طفولة قليلة العدد ازدادت حظوظها، بينما الغالبية تتعرض لتضافر الغبن الأساسي والأضرار المتلاحقة التي حملتها الحرب على كل الأصعدة، مما يؤدي الى تراكم الأخطار المحدقة بحاضرها ومستقبلها.

ولسنا ندري متى ستتوقف الحرب، وبالتالي ماهية وحجم الأضرار النهائية التي ستنتج عنها.